قصة قصيرة

ناس في الميناء

السائح الهبيب

عقربا ساعة الميناء بطيئان .. كأنما يتحركان خلف الزمن .. هكذا أحس العم قادري ؛ اذ شد على خاصرته يدافع ألما يشب نارا في كليتيه .

ينحني ، يدرج البرميل اللزج الملمس ، وفي رأسه يعيد ويعيد خطة الغداء المكرورة ...

انطبق العقربان فارتفع مبحوحا صوت الصافرة يعلن منتصف النهار .

من كل زاوية في أرضية الميناء كانوا يخرجون على نغمات شجية ترددها موجات البحر المتكسرة عبثا على الرصيف .

في ذهن كل واحد منهم يتحرك عالم بحجم همومه، يعمقها في صدورهم مطر ما زال يسقط . وريح تجلدهم .. وتطاردهم . عربات يمارس الزمن ضدها البلى ، ولا تؤويهم جميعا .. أيديهم في جيوبهم ، نحو مخرج الميناء متجهون ، في وسطهم بدا يحس بحز في صدره :

ـ كيف الحال عمي القادري ؟

ـ رديئة كحالة الجو .

من اين يبدأ الحديث ؟ أين ينتهي ؟ لم يكن ذلك ذا قيمة .

ملاذ يلتجئون اليه به خبز وشيء آخر ساخن . هذا هو المهم .. صحن من الحوت المشوي تقف عليه شاهدة واحدة من دم السبع .

رد ـ دفعا ـ دعوة امعائه الى المقطوعة التي تعزفها واستجاب لصوت السيد المختار يتردد صداه بعد تلاشي دوي الرعد الذي ملأ الاسماع :

ـ لو خيرت في أمركم ، كنت رميت بكم جميعا الى البحر يقتات منكم الحوت .

رذاذ بدأ يسقط .. انذارا بمطر غزير . قفل ياقة معطفه .. كح ألما وكحت السماء رعدا :

ـ عمي القادري ! نكاد نصل .. بعض الجهد وتسترد انفاسك .

توقفوا عبورا للشارع .. سيارة السيد المختار تابعتها أعين بعضهم في فضول .. متجهة نحو غرب المدينة حتى غابت في المنعطف مائلة . ولما استوى السيد المختار شكل قالبا أجوف أوسعه اشفاقا :

ـ ألا تجدين انهم تعساء أكثر من اللازم ؟

ـ الى أين يتجهون ؟

ـ لا تتحيري .. لم تسألي الى أين نتجه نحن ؟

ـ ليس مهما !..

ـ كل يوم أكتشف فيك شيئا جديدا .

ـ مثلا ؟

ـ جمالك !..

ـ مجرد حكايات !

ـ صدقيني .

ـ أولادك ؟

ـ لا يهم .

ـ زوجتك ؟

ـ لا يهم .

ـ سمعتك كرئيس مدير عام ؟

ـ لا يهم .

توقفت السيارة ثالثة تأخذ مكانها في ركن منزو :

ـ وصلنا !

ـ فعلا . انه اندلس ! لكنه كئيب !!..

ـ المظاهر خداعة ! ثم الا تخافين على سمعتي ؟

عبرا الى باب المطعم :

ـ تفضلي .

دفء .. هدوء .. تنسيق .. ضوء ولا ضوء .. لا هو أحمر ولا هو أصفر . تنبع منه نغمات موسيقية مهدهدة تمسح عن الآذان كلّ اثر لبقايا أصوات خشنة .

وكأنما على خشبة مثل ببدلته الحمراء ومنديله الابيض على ناصيته :

ـ كما طلبت سيدي المدير .. مائدتكما محجوزة..

اسمح لي بمعطفك .. شكـرا ! اذا سمحت سيدتي .. تفضلي . تفضل .

ثم تقيا جزءا من مسحوق الابتسام الذي جرعه .

رغم كل الشرود كان اللقاء عيونا ناظرة هي الاخرى عجزت عن النطق لحظة .

وما خطر ببال السيـــد المختار يـــوما أن يسأل ما الذوبان ؟

اسفنجة تمصه الى اعماقها ، هكذا يدرك اللحظـة في حضرتها .

شفتاها لم تقصدا دعـوة عينيـــه حين تحركتا لنعبث انامله ويتشنج بعض من عضلاته .

يريد أن يتخلص ــ ولا يرغب فيذلك ــ من محاولة اجتثاث نهديها لعينيه ..

كل شيء فيها يحسه يتحـــداه .. يفتقد موقعا اماميا .. يلوذ بالمائـــدة يستجمع قواه ليحطم أغـلال الاسر :

ــ صرت أرتاح اليك كثيرا ! صدقيني .. رغم انك قاسيـة .

ــ ترتاح الى جسدي ؟

ــ رغم انه لهيب !

جميـــع المعادلات لا نتـــائج لها .. صعدت .. هبطت .. دخلت وخرجت .. مشطت طــولا وعرضا فكانت الفريسة وكان الوحش في عينيه شراهة البحر :

ــ الى متى ستظلين على هذا العناد ؟

ــ ما دام جسدي يقيم توازنك .

أحس حفرا تحت قدميه فهرب الى زوايا المطعم.. ولما عاد وقف في حضرة الوجه الجميل :

ــ تغيرت ! صدقيني !

اعلان خطير ! لماذا ؟ يجب أن يبقى في موقف قوة. او على الاقل أن يظهر كذلك ...

في جذور شجرة القلق التي بدأت فروعها تنتؤ في صدره كان يبحث عن شيء ما .. ابتسامة مثلا ! لكنهـا على وجهه طمستها غيمة شاردة مرت بسرعة .

وعلى مستوى إخفض مـــن مستوى الموسيقـــى المهدهدة يقدم تنازلا آخر :

ــ نفسي تحدثني بأنك .. أقصد انك مهمومة !..

ــ أشعر ببعض الحزن ... مجرد حزن ...

ــ هذا الاسبوع اذهب الى العاصمة في مهمة .. انها فرصة أخرى .

ــ عجيب ؟ وفي الاسبوع نفسه تســـافر زوجة السيد العياشي الى أوروبا ! لا يا عزيزي . أنا آسفة .

اتقدت جمرات دعـــوة السيد العياشي تدفــيء صدرها :

(ــ أفضل أن أتحدث اليك على انفراد .. هــذه بطاقتي .. انا تعيس .. زوجتي مريضـــة .. والاموال لا توفر السعادة) .

ــ لم تردي .

ــ سيدي المدير .. ألا ترى أن لديّ أعمالا تتطلب الانجاز قبل نهاية السنة ؟

ــ شعور نبيل ! متى كنت جدية الى هذه الدرجة ؟ تستحقين ترقية !

ــ ومع هذا أعرف اني امرأة لا تستحق كل هذه العنايـــة !..

ــ مثلا ؟ أن تتزوجني ؟ الا هذه !

ــ لماذا تعذبينني ؟

ــ لاني قرفت مـــن بلع الحبيبات ... ا'كفيك شر انتفاخ بطني .

قاطعهما .. الورقة البيضاء فـــي يد ، والقلم في يد . ووقف استعدادا للتنفيذ :

ــ طلباتكما .. سيدي سيدتي .

ــ أحس بجوع غريب هذا الزوال .. توجه الـــى السيدة تطلب لنا غداء دسما .

ــ هذا أقل ما يمكن أن أقدمه .. هيا سجل .

مشى رجل نحو الباب يخـــاصر امرأة .. ولما كانا خارج المطعم واجهتهما فوهة الشارع فاغرة تنفث رذاذا كانت أقل دفعا له ، قاعـــة المطعم المكتظة بالصياديـن وعمال الميناء .. تزفر حرارة الانفاس ودخـــان السجائر العـــائم .. تفرز رائحـــة « الخمر الاحمر » والسمك المشوي على النار الغـــازية ، فتنتشر في ذوق خاص يستطيع الزبائن وحدهم معرفة عناصر تركيبه .. لانــه يكوّن جزءا من حياتهم ! لكن تمييز الكلام في هذا المقام صعب ! كل الشفاه تتحرك . وكل لسان يلفظ .

حتى الذي انزوى في الركن الخلفي يسنـــد ظهره الى الجدار يدندن ، يودع زجاجته السر الخطير الـــذي يخبئه ، يبتسم كانما يسخر من العالم الصغير المتماوج امامـــه ..

الكراسي بدت له أحصنة حرنت، ركابها لا يحركون ساكنا من اجل همزها ، ولكنهم وحدهم يتحركون !.. السقف في عينيه والجدار دارا ، فأطلق كلمات يقـــاوم بها الارتجاج :

ــ الدورة ! الدورة ! كل شيء يدور ..

الى الاعمـــــاق يغيب اللفظ تحذيراته .. يخنق قهقهاتـــه :

ــ أعجبك الغداء ؟

ــ لأن المكان يعجبني !..

وبصحنه بقيت زيتونة سوداء شاهدة على هيـــاكل السمك .. لم تضع منها شوكة . تناولها :

ــ كم ستكلف اقامة مطعم بشركتنا ؟

ـ على من تقرأ مزاميرك يا داوود ؟!
ـ لاننا لم نحسن أختيار من يطرح مشاكل مماثلة !
ـ اذا ضربك القاضي لمن تشتكي ؟
ـ والرتيلاء ؟ الى متى ستظل شبكتها قائمة ؟ والقائمة السوداء ؟
حقيقة ! ما الرتيلاء ؟ ما القوائم السوداء ؟ كيف يمكن لمسها ؟ لم يكن أحد منهم ليجيبه حتى يجاهر . صمم على غيه : ماذا يحدث لو تسحقني في يوم من الايام شبكة الرافعة المحملة ان تقطعت حبالها ؟ ومن عيني المعتوه ـ في الركن ـ جاءه الرد ترجيعة رعناء : ستموت ككلب داسته سيارة !..

ـ هذا انت ايها العفريت ؟ خرجت من أعماق البحر ؟ مالك مبتل كقط ؟
ـ المطر خيط من السماء !
الرعدة ـ في مفاصل الاجسام ـ سرت شحنة كهربائية رغم دفء القاعة . فكح العم قادري كحة ترددت حدتها في صدور المحيطين به دودا خبيثا يدب :
ـ انت مزكوم يا عمي القادري !
ـ لماذا تغالط نفسك ؟
مساكين ! لكنهم أقوياء ! رغم المختار والفقر والبرد والبراميل والرافعات .. صقلت ذوقهم أغنيات البواخر الراسيات المبحرات ونحتت أجسامهم أمواج البحر التي امتزجت بعرقهم في المد والجزر .
من الركن متعثرا قام المعتوه عاري الراس وفي عينيه المكورتين يتولد الرعب فزعا :
ـ غدا تحمر الآفاق لميلادها .. وحين تمشي يزهر النوار الابيض !.. غدا .. غدا !
وهرول يخرج مطاردا خيطا لا يتبينه .
رصده العم قادري في آخر خطوة يلفيها خارج المطعم :
ـ يسمونه لخضر المهبول .. كل ما يعرف عنه الناس انه أصبح ذات خريف هنا منذ سبع سنوات
يرحل لخضر ! يتنهد العم قادري .. ويزعزع صدر احدهم بريق :
(ـ لو تتواصل الحلقات !) .
تحاكت الكراسي وانت .. وفي اتجاه الميناء كانوا يخرجون :
ـ أحسّ بتعب.. كح . كح . صدري !.. آه !..
ـ ما زالت البركة يا عمي القادري ..
ـ أواه ! عظامي تسوست !..
ـ لم ترحم نفسك .
ـ لأني أعرف انه يوم أموت . في المستشفى يلقح طفل يولد .
ومن ذراعه الى الامام دفعه نحو مخرج المطعم .

وهران

صدر حديثا

روايات وقصص
د. سهيل ادريس
في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني
(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق
(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق
(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس
في جزئين :
اقاصيص اولى
اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب